تمثّلات الهوية ودلالات التشظي في لون أخر للرماد للشاعر مضر الآلوسي

د.سعيد حميد كاظم وناس

المديرية العامة لتربية كربلاء المقدّسة

Identity representations and fragmentation signs in a Another color for the poet

Dr. Saeed Hamid Kazem wnas

Directorate General of the Holy Karbala Education

saeedhamead74@gmail.com

abstract:

The Poet, through his poetic vision, was able to identify the differences by forming an active vision in his poetic text, which crystallized the formation of identity. The texts are based on their views on movement and change, and the patterns in which they are applied to the aesthetic and artistic aspects. Thus, the effectiveness of the literary text is strengthened and it begins to reveal its aesthetic purposes before beginning to spread the concerns of the people And the statement of a climate of anxiety and suffering in it.

Therefore, the poetic text, in all its artistic and aesthetic meanings, produced some formulations that are indicative of the identity of the homeland and the self in which it is incorporated. It was in the form of flashes, a declaration that the poet proclaims to raise the voice of rebellion and rejection of all forms of absence and absence. Which is a symbol of the transformation of the text into a revolutionary act in which the poet is the starting point of the internal self-movement seeking to establish the idea of belonging through the artistic and aesthetic values in the text. Thus, the self conforms to its human and national identity, it splits and splits in the text With nudity equates visions, as well as the visions Outpouring within the self, which creates a multiplicity of meanings and broader visions, so named its tracks poetic consciousness signifier, and distributed ideas on the poetic text path, as self-made operator intellectually to crystallize her.

Perhaps the context in which these visions are employed tends to adopt a textual structure based on trimming and selection, as well as election and condensation elsewhere, as a poet capable of elucidating some of the confrontational positions and making the text truly eloquent, creative, engaging, transcendental, integrated and visionary. These texts are suffused with the human pain that is subdued by the self, and that the nature of recruitment lies in the qualitative achievement. The poet has highlighted the obsessions and obsessions in successive poetic panoramic images, but is

practicing critical thinking of a dispersed reality. Changes and changes, but enjoy the meanings of identity that can not be dispensed with.
Keywords: Identity, fragmentation, poetic visions, poetic efficacy, poetic awareness, poetic sequence, intellectual initiation, poetic inference, rebellion and confrontation.

الملخص:

لقد استطاع الشاعر عبر رؤيته الشعرية أنْ يحدّدَ ملامحَ الاختلاف من خلال تشكّل الرؤية الفاعلة في نصّه الشعري، التي تبلور عنها تشكّل الهوية، إذ خضعت لفاعلية جديدة أنتجت رؤىً أخرى في المضمون الشعري الهادف ممّا أدى إلى إبراز قيم فنية وجمالية يستبطنان قيمًا إنسانيةً متعددةً، وقد حقّقتا حضورًا نوعيًا في الإثراء والرصد على مستوى الألفاظ والمعاني، لذلك تعكّزت النصوص في رؤاها على الحركة والتغيير، وتكرّست الأنماط الدالة فيها على الملمحين الجمالي والفني، وبهذا تعزّزت فاعلية النص الأدبي وهو يشرع بالإفصاح عن مقاصده الجمالية قبل الشروع في بسط هموم الذات وبيان مناخ القلق والمعاناة فيها. لذلك أفرز النصّ الشعري بكلِّ معانيه الفنية والجمالية بعض التشكّلات الدالّة على هوية الوطن، والذات التي تنضوي فيه، فكان منها على شكل ومضات دالّة يعلن الشاعر بأزائها إعلاء صوت التمرّد والرفض لكلِّ أشكال الغياب والتغييب، وأخرى في مفاصل النصّ عبر إيحاءات مؤلمة على أنَّ نصّه الشعري لم يفارق معاييره الدلالية لتتحوّل ثيم النصّ إلى فعل ثوري مجسِّدًا من خلالها الشاعر نقطة انطلاق حركة الذات الداخلية الساعية إلى ترسيخ فكرة الانتماء عبر القيم الفنية والجمالية في النصّ، وبهذا فإنَّ الذات تتماهى مع هويتها الإنسانية والوطنية، فهي تنشطر وتتشظى في النص الشعري تماهيا مع رؤاه، وكذا فإنَّ الرؤى تتشظى داخل الذات، مما يخلق تعددًا في المعاني واتساعًا في الرؤى، لذلك وُسِمت مساراته الشعرية بالوعي الدال، وتوزّعت الأفكار على مسار النصّ الشعري، إذ جعلتْ الذات مشغلاً فكرياً لبلورة خطابها.

ولعلّ السياق الذي تمَّ توظيف هذه الرؤى فيه إنّما ينزع نحو اعتماد بنية نصّية قائمة على التشذيب والانتقاء، فضلاً عن الانتخاب والتكثيف في مواضع أخرى منه، بوصفه شاعرًا قادرًا على استجلاء بعض مواقف المواجهة وجعل النصّ زاخرًا بالفعل والخلق، والاشتباك والتعالق، والاندماج والرؤية، كما أنّ تلك النصوص تضجُّ بالوجع الإنساني الذي ترزحُ تحت وطأته الذات، وأنّ طبيعة التوظيف تكمن في الإنجاز النوعي، وقد سلّط الشاعر الأضواء على الهواجس والحدوس في لقطات بانورامية شعرية متتابعة، وهي إنّما تمارس فكراً نقدياً لواقعٍ مشتّت، وهذا الإجراء يمثّل حركةً تنطوي على تبدّلات وتغيّرات لكنّها تجود بمدلولات الهوية التي لا سبيل للاستغناء عنها.

الكلمات المفتاحية: الهوية، التشظي، الرؤى الشعرية، الفاعلية الشعرية، الوعي الشعري، المتوالية الشعرية، التأسيس الفكري الدّال، الاستدلال الشعري، التمرد والمواجهة

المقدمة:

يتحرّك السياق الشعري على نحوٍ مختلف، ليخلق الشاعر من خلاله صورًا شعرية توحي بتحرك الدلالة إلى مؤشرٍ رافضٍ لكلِّ أشكال الخطاب التغييبي للذات وانتمائها، لهذا احتكم النصّ الشعري إلى مؤشرٍ يفصح عن تدوينٍ لليالٍ تكرّست فيها رؤية ودلالات اللون في حين ظلت المعاني مطرزةً بالمزيد من الألوان التي كرّست ألوان الحياة، لذلك جادت الذاكرة بما يؤرخ مسارات الهوية المتشظية، فكان من بعض نزرها وثلة من مآسيها سيولّد اللون لوناً أخرَ لعلّه أكثر قتامةً، وهو ليس كالألوان شبهاً، وسيكون أكثر مرارةً وبؤسًا في ظلِّ واقعٍ يحدو فيه الغياب والتغييب، وتتسع فيه المسافات نأيًا واتساعًا بين الذات التي ترزحُ بهذه القيود وبين الانتماء الذي تتماهى معه، ولا ترضى بغير حضوره، لذلك تبقى الذات تقارع هذا الغياب وترفض التغييب الذي يُطوّق المسارات الإنسانية وينثُّ روائحَ ممجوجةً في واقعها، ومنه ستتوالد المحن في واقعٍ أكثر قتامةً ليس للمرء حيلةٌ ينتهجها ولا مسارٌ ينقل فيه خطاه سوى التمرّد والمواجهة وإلا سيقبع في الليالي التي يتعاقب ظلامها بسوادها، لذلك كشفت هذه الليالي عن سيرةِ إنسان وتحدثت عن واقعه بلسانٍ فصيحٍ، ليكون منهاج ليلتها الأولى التي تفصح عن عدم تبدّلٍ في الواقع، وثمة سكون في الواقع الحياتي والثقافي، وحتى لا نجانب الصواب فإنَّ الواقع في دوّامة العاصفة وتلك الحقيقة التي لابدّ من الإفصاح عنها ولا سبيل أمامها إلا الثبات، والتي أظهرها الشاعر في رؤاه ومعانيه، فكان يشخّصها كما ينتصر لها، ولذا فهو عازم على أن يكون جنديًا مخلصًا يحمل لواء الحقيقة ويدافع عنها بالحضور، كي لا تُستغلّ المساحات النقية بطوق المؤامرة، وحتى لا تكون في ضياع مبرمج يسعى إلى تغطيس الجزء الحقيقي لتطفو على السطح بقايا فقاعات مموّهةٍ تُخفي في طياتها مآلاتِ الذات وروابطَ انتماء ما لها من قرار، وحتّى لا تمتدَّ شروخ الواقع على الحياة الإنسانية فتُجْهِزَ على ما تبقّى، ولذا كانت الثورة تتسمُ بالذاتية والهدوء اللذين يدعوان إلى إظهار الرأي الحر لتصل الرسالة من حيث انطلقت سالكةً السبيل الإنساني ومؤكدةً وعيها عبر انتمائها، وهي في مقاومة لتشعبات الاحتكار الذي ينتهجه من تؤول إليه مصائر البشر، إذن فهاجس المواجهة في استنفارٍ دائمٍ لردع المحاولات البائسة، التي تُكرّس الانقسام والعزلة، ولهذا لابدّ من الاعتقاد بحتمية إيجاد البديل في تحقيق التوازن، وفسح المجال لسيادة ثقافةٍ تغييريةٍ تروم بناء الإنسان وتبتغي انتشار سمة الحوار كبديلٍ أسمى في الواقع الإنساني.

الهوية.. تشكلاتها دلالاتها

أخذتِ الرؤى الشعرية بُعْدَها الجمالي حين عكست تآلف الألفاظ مع المعاني، ليتجلّى التجسيد الشعري عن واقعٍ لا يبتعد مضمونه عن الواقع الإنساني المليء بالأحداث المتناقضة، لذلك توزّعت تلك التشظيات لتجدَ مستقرها في مفاصل النصّ الشعري، لذا استقدم الشاعر عنوانات لليالي المتسلسلة وقد كانت بمفارقةٍ رائعةٍ ليمنحها اسم (نهارات)، وهي بحقيقة الأمر سواد الأيام العراقية التي نفح الأعداء عليها سمومهم وإرهابهم، فملؤوا سماءه من غيض دخانهم القاتم للرؤية، والتي اعتاد ساكنيه على الانسجام مع رمادية الطارئ الهجين حتى باتت تنطُّ على سطحه كأنها شيءٌ مألوفٌ، لذا لم يكن من الذات المعزّزة بالانتماء إلا المزيد من التمسك بروحية هذا الانتماء الحقيقي للوطن وإنْ مالت بها الشدائد وإن طوّحت، ولذا فقد كان العرض لمشاهده دقيقًا، وهي إنما محطات العراقيين المتسلسلة في سجل الضياع فجعل الليلة الأولى مجهولةً، وهي بداية دخول الهموم غير المسوّغة لتعكس التشظي والضبابية القاتمة، التي جاءت دونما استئذان فحلّت جاثمةً على صدورنا، وبدأت تُناسل فينا غيّها، وستمتدّ تلك المجهولية لتوضّحَ عمق الألم الذي لا توصف هجمته، ولا تحصى آلامه، وهي فرصةٌ أخرى لتنطلق منها هموم الآخرين، الذين تنوّعت مشاربهم، وكما جعل البداية هكذا انتهى بمثلها في النهاية فجعلهما مفتوحتين، وترك القارئ ملأهما عند استعراض المضامين والرؤى الشعرية متخلصًا من الغياب ساعيًا إلى تكوين لحظة ديمومة عميقة تضطلع بتكوين ملامح الذات ومُغرقة في ملاحقة تفصيلات هذه الملامح.

ومما يتيح لنا سعةً في التحليل أو التأويل أنّ عتبة المجموعة الشعرية بعد العنوان –أي في الديباجة– قد جسّدها الشاعر بأسئلةٍ وتَعَجُباتٍ تدفع الباحث إلى أن يُفتّش عن أجوبتها لاحقًا، فكانت تكشف تلك العتبة عن حقيقةٍ لا يمكن التغاضي عنها أو التعالي عليها، وهي في الوقت نفسه لم تكن تشاؤميةً؛ بل ترغب في بث التغيير وتطمح لتجاوز الأخطاء المتكرّرة التي ألقت بظلالها على الواقع الإنساني، التي غالبا ما تكون بتدافع من الآخرين الذين يظهرون ودّهم إلينا، ويضمرون موتًا عاجلًا لنا، وأكثر ما يكون ذلك بعنوانات وطنية زائفة، فيقول في مستهل مجموعته:

لماذا نحاول ملءَ احتمالاتنا بالثقوب

لتبدو أسماؤنا نازفة؟!

لماذا نعوِّد أولادنا

الموت في العاصفة؟!(١)

وبهذا فإن لغة هذا النصّ تقوم على أكسية استعارية شعرية، لذلك تجود المعاني بما يشاكلها من الألفاظ، لتأتي الليلة الثانية وتفصح عن مفرداتها عبر صياغة متداخلة فتجد فيها التشبيهات

الميّالة إلى المجاز، وفي هذا السياق فإنَّ الفاعل الدلالي يُفصح عن تضمين الشاعر ليلته الثانية لتكون ذكرًا لصبرٍ مريرٍ، وهي تطلُّ على امتحانٍ جميل يفرزُ الصبرَ، الذي لا يوازيه سوى جمر متقد، وكلاهما مؤلمان وليس لأحدهما أن يكون بديلًا عن الآخر؛ بل لابدّ من حضورهما معا حتى يكون التوازن، فحصول الأول شرط في ترجمة الآخر، نظراً لاشتداد الصراع وقوة وجوده، إذ ليس ثمة متسع لتخفيفه، إنما ينشأ على وجلٍ وقلقٍ يحاول أن يهزَّ بعض الأركان ويزعزع بعض ثباتها، كما هي في تتابعٍ وتلاحق لبعض حدودها حتى تخلق شيئا من الهيمنة، أو إدراج بعض النكوص في مفاصل ذلك الواقع الذي يطوّقه التحدي ويكشف عن تحرّقٍ راسخ في الذات، لذلك لم تكن معالجته بالأمر الهيّن؛ بل حتّمت على الشاعر ضرورة استيعابها وتصويرها على نحو متكافئ ليقول:

يكاد
لون الصبر
أن يفضحك
لن أوقد الضوء
ولن أجرحك
لا تطفئ النار
بدمع الرضا
أحتاج بعض الجمر
كي أشرحك(٢)

ولا شكَ أنّ النسق الشعري يبلور رؤيته ليكشف لنا على نحوٍ واضحٍ ملامح لغته الشعرية داخل المنظومة الشعرية مع تأكيد خصوصية هذا النسق وهو يطرّز أفكاره بتعدّد المعاني، وهي رؤية تتفق ورؤية فورستر الذي يرى أنَّ القصيدة "مظهر لقدرة اللغة على صياغة الوعي"(٣)، وبهذا يستمر الشاعر في عرضه –مفصّلا القول– عمّا أحدثته تلك الحروب الهوجاء– التي وجدت مستقرها في بلاده– من مخلّفات مدمرة حاولت الالتفاف على القيم المستقرة من أجل زعزعتها وتحريك الثابت منها، وبث الخراب في ربوعها وهي–مما لاشك فيه–من تدعو إلى الانقلاب على الشرعية الإنسانية، وتبنّي موازين جديدة لا تحتكم إلى السلام، ولا تفكّر يوما أن ترضخ لمنهاج العقل، فكان الليل الثالث نتيجة من نتائج سطوة السلطة الغاشمة، التي تُحرك خيوطها بعدما أضرمت نار الحرب، فيقول عنها وهو يعطي تحذيرات تنبّه الآخر من عدم صدمته، وأن لا يتفاجأ كثيرًا إذا ما رأى صديقًا يُجْهِزُ على صديقٍ، وغريمًا يقتل عشيقًا في بلادٍ تتسع بتحابهم لبعضهم بينما تضيق أفاقها للمتباغضين، ولأنَّ الاعتيادَ يقتل روح المفاجأة لذلك لا تزداد الدهشة تجاه واقع يفسح المجال للمحذورات ويضفي عليها

شرعية القبول؛ ذلك أن هذا الزمن هو زمن المتناقضات ويحمل بين طياته الكثير من المُفاجئات، التي تتسيّد حياتنا ولنا أن نرضى بها صامتين كواقع حال فرضه الذي يختبئ بين ظهرانينا ويسير معنا أليفًا ويجلس في خندق الوطن:

ماذا ستفعل

لو رأيت عيونك

تنسلّ خلفك

وحدها لتخونك(٤)

إنّ لغة السياق الدلالي تسعى إلى انضاج معنى التأويل وتأكيد فاعليته معبراً عن ذلك عبر البيان والإفصاح المضمرين داخل منظومة التأويل، لذلك كان للسياق الدور الأكبر في تحديد المعنى، وهذا ما أدلى به الشاعر عبر رؤيتيه الظاهرة منها والباطنة، فأوضح أنّ أشدَّ ما يحزُّ بالنفس أنينًا وتمزقًا هو أن تجد من بذلت له المطارف والحشايا لا يرضيه زوال نعمتك فحسب؛ بل يريد لك ميتةً مذلةً ليضعَ قدميه على آثار قبرك قاطعًا رحم الانتماء في عروقك، أو أن تكون تابعًا لإرهابه الأعمى، فيسير عابثًا بمدنك، راضيًا أن تقبع الذات في هذا الخراب، أما أن تكون صالحًا فإنَّ في ذلك إفسادًا لمطامحه اللئيمة، إذ بالأمس زجّوا بك يا عراق في قتلٍ ودمارٍ، وكانت السنين عجافًا أكلت أغلب العمر، واليوم بما تبقّى لك من حصيلٍ يريدون أن يضرموا فيه النار، فهل لك أن تعي أسباب الصراع وتنظر في أمرهم المريب ؟ فالذي استراح بكنفك اليوم يسعى لشتاتك، وبعدما عاش على معينك يعتاش اليوم على دمائك مسرورًا، ولكن مهما طال شوطهم المرير فإن للشاعر رأيًا يُخرّب عليهم أمانيهم، ويذكّرهم بما يُتعّس أحلامهم، ويقلب عليهم حساباتهم، وكان ذلك بذكر اسم الحسين (عليه السلام) نقطة الإشعاع والنصر، الذي ينهزمُ بإشعاعه الظلاميون (السرخسيون) وهم يؤسسون للظلم موطنًا، ويرغبون أن يعيشوا خلاف الوضع الإنساني، ولكن أنّى لهم واسمك يا سيدي مازال حاضراً، ولم يقتلوك ولكن شُبِّهَ لهم، فيومك هو ذلك اليوم الذي انتصر فيه الحقُّ وزهق فيه الباطل، وهو يوم النصر والمبعث والولادة فارتفعت راية النصر لكربلاء ومات ظلمهم وظلامهم، وانقدح النور إلى الأبد.

هم هكذا..

لا يعرفونك

كن كيف..

إلا أن تكونك

هم هكذا..

لا يعشقونك
لكنهم يستنزفونك
يستعجلونك
كي تخوض
وعندما..
لا يتبعونك
هم بايعوك
فلا تجيء
مثل الحسين
سيقتلونك(٥)

لقد كرّس الشاعر التضمين الشعري المعزز بالغاية الشعرية والمقصدية الدلالية، وقد سلّط الأضواء على طبيعتهما وحيثياتهما طامحاً بذلك إلى فسح المجال أمام الرمز ليغدو لازمة شعرية يعبّر من خلالها عن توجهاته الفكرية، وهذه رؤية توافق الرأي القائل "بات واضحاً اليوم، كما يبدو، أن حداثة القصيدة العربية لا تكمن في خروج الشاعر العربي على الوزن والقافية، بل تتمثل، حقاً، في انعطافته الكبرى لبلورة رؤية خاصة به، وما ترتب على ذلك من بحث عن رموز وأساطير وأقنعة يجسّد فيها، ومن خلالها، رؤياه ويمنحها شكلاً حياً ملموساً"(٦)، وبهذا الأثر يكون موزعاً على الرؤية ومهيمناً بطروحاته كاشفًا عن مركزه الدال على الهوية والذات، لذلك لم تفارق رؤية الشاعر تضمين هذه الرموز لأنَّ "تركيب بعض الرموز وتسلسلها يمنحان النصّ دلالات مختلفة تكون مدهشة وفي الوقت ذاته متجدّدة ومثيرة"(٧).

إنّ التأويل بالمعنى ينزع نحو رؤى جمالية تنعكس دلالاتها في النصّ الشعري كاشفةً عن تمظهراتها في الأنساق الشعرية، وبهذا كمنت رؤية الشاعر في فراسةٍ عن واقعٍ عراقي مزمن، فإنْ خُبّأتْ أزمته لوهلةٍ لابدَّ من تفجّرها في وقتٍ لاحقٍ، وهي لم تكن محض هواجس عابرة وإلا لما أكّد عليها هذا التأكيد، ولما أفرد لها مجالاً ضخماً في مجموعته، وهو إنّما ذلك الاستشراف الذي يمكن عدّه من الثوابت، التي يقاس عليها ما سيأتي، بل ما يتحقّق فيها مصداقًا لفكره الذي بلور السواد المتكرّر، الذي سيرافق عمر الواقع العراقي بما فُرض عليه من تكبيلٍ، فهو كلّما ابتهج قلبه ونصعَ جبينه انغمست مدبّبات الحاقدين في فؤاده، وكلّما سمع صرخات المبتهجين، لذعتْ أسماعه قيثارة البوح الحزين، من هذا سينطلق السؤال في أفق الأزمة الدائمة، هل ثمة من يضع يده على الكف المجروح ليعالج نزفه؟ وهل من يعيد في عروقه نبض الحياة؟ وتتكرر الأماني ويتكرر السؤال، وبهذه

الجدلية يكون الصراع بين تحقّق التوازن، أو بين معادل كفتيها؛ إذ إنَّ ميلان الأول على الآخر إرباك لذلك التوازن، وإذا ما تباطأ الحلّ وتفاقمت الأزمة فإنّ صرخات الاحتجاج سيعلو صوتها، ويكون صوت الكلمة أعلى من أي شأنٍ آخر، حتى يتّجه الحلُّ نحو المرفأ الذي يقطنه المعتدلون، وحتى يحافظوا على ديمومة مسيرتهم الهادئة، لابدّ من عدم السماح إلى المتطرفين الذين يثيرون أجواء الخلاف بين الماضي والحاضر ليهدّدوا السلم الإنساني ويدمّروا المستقبل، وبهذا سينعم الجميع بعافية الاستقرار الذي كان نتيجة المحاولات الشاقة والتضحيات.

ياقلب لا تنزف دمًا وانطق دما
وأذن لهذا الجرح أن يتكلما
ياقلب ياهذا العراق وكلهم
صعدوا عليك وكنت وحدك سلّما
ثُر إنّ نزفك لن يروّي غيظهم
ولئن ملأت الأرض من هذي الدما[٨]

تجليات الهوية ومتشظيات الذات

إنّ خفاء الدلالة الشعرية التي أودعها الشاعر في نصّه الشعري، إنما يريد أن تعقبها مرحلة الانفتاح عند المتلقي وتترجمها ذهنيته لتقف على تخوم الحجب الدلالية، وبهذا لم يجعل ألفاظه تحمل معنىً واحدًا، فـ "التحول الدلالي يُعدُّ بحق إحدى الطاقات المحركة للأدبية"[٩]، وهذا ما جسّده الشاعر في نصوصه الشعرية، إذ يمكن عدّها صرخةَ ذاكرةٍ تدعو إلى تطبيع روح المواطنة الحقيقية، لذلك حوت نصوصه الشعرية على قيمٍ شعرية وإنسانية ثاويةٍ في بنى النص الشعري لا تخضعُ لاشتراطات، وبهذا فإنّ النصوص محتشدة بالرؤى ومثقلة بالصور، والشاعر يغرس البعد الإنساني في هذه القيم بوصفه إنسانًا ينتمي لذاته وللسر الذي أودعه الله تعالى في ذاته من عشقٍ للأرض التي ينتمي إليها ممتدًا بجذورها حيث الحضارات البابلية والسومرية والأكدية والآشورية؛ بل أثبت يقينا ذلك الحرص الذي فيه نكهة الأجداد والآباء، وهم يغرسون في ذوات الأبناء بذور المحبة والولاء للوطن.

تلك الرؤى قد تبنّاها الشاعر وأراد لها أن تمتدَّ في الأفق الإنساني والحياتي، فهو الذي لاكته مرارة الواقع العراقي بعدما خاض في شعابه، فلم تدعوه–تلك المرارة– إلى النكوص أو حتى إلى التراجع، أو أن يرتدي وطنية مزعومة آيلة للانهيار في ضوء طارئ مخبوء ينطُّ بجهامته ووجومه؛ بل ظل صُلب الذات التي تفيضُ بملامح الرسوخ والثبات لتكوين الوجه المضاد لكل أشكال الغياب والتغييب، فكان رائدًا في صوته، ولذا لم يُكذّب أهله في ظل ظروفٍ حالكةٍ وفي شتى المجالات،

والتي لا يصمد أمامها إلا الحاذق العارف، وعلى الرغم من حدّتها وشدّة دورانها القاتل، إلا أنه الصامد، فضلًا عن أنّ الحاضنة السياسية، والاجتماعية، طوّقته فوسمته بوسم مميز، وعلى الرغم من أنّه عاش ما يسمى بـ (أزمة) أو مجموعة (أزمات) سعت إلى الإجهاز عليه (إنسانا) اكتوى بنارها، ومنحته لونها وتجهمها، لكنها في الوقت نفسه صنعت منه صوتًا مختلفًا.

وممّا لا شك فيه أنّ الأشعار قد لامست الواقع وعبّرت عنه تعبيرًا صادقًا، وتماهت معه في ظل المتغيرات، وأعطته زخماً معرفياً ليستقر الواقع ويتوازن، وحين تعمّقت المعاناة مستفحلة لا حدود لأمدها، لم يشترك الشاعر في زيادة قتامتها، ولم يكن غليظًا في التعامل معها، ولكن ضرورة المرحلة التي مرّ بها الوطن الشامخ والتي يمرُّ بها الآن لا تعطي مجالًا للمخاتلة؛ بل راح المبدع بألقه يمسح الأوجاع عن نقرس دائها، كما لم يُقمْ مأتمًا للجراح فيودّعها مكرهًا؛ بل باتت عينه تحرس كل شبر من أرضه عبر صوته الذي ساد في مضمار مجموعته الشعرية، وعينه الأخرى ترعى الأبناء وهي تبتسم لهم لتعيد إليهم الأمل القابل.

منّيت نفسك موطناً

لو..

لو..

فخانتك المنى

أقسمتَ

لا تحيى هنا

لو كان ذلك

ممكنا

فرحلت

تبحث عن هناك

فلم تجد إلا هنا(١٠)

تُحرك لغة النص الشعري الديمومةَ في مساراته الشعرية، وهي تصطنع معادلات موضوعية تحاكي بها الفعل الشعري، ومن يتتبع مضامين النصّ الشعري يصل إلى حقيقةٍ هي أنها بوحٌ صارخٌ للذات، وانتحابٌ شجي ليس بوسعه سدّ جزء بسيط من خفقات الروح المضطرمة بالألم، والتي طعنها الزمن بسهامه المدببة، فأخمدَ صوتها وما عاد فيها من إيقاظٍ يُرتجى، غير همسٍ بين حجرٍ متشظٍ وفتات تراب رمادي تسير ذراته في جسمٍ قد خوته الهموم ولكن لم تنل من همته، وأدمته وعورة الطريق الطويل، وقلّبته صراعاتٌ مريرةٌ، فقد تجلّت مخاطبة الشاعر لحالات اليأس واللاستقرار، وكل

دخيل طارئ يسلب الهناء على أن يرحل، فلم يعدْ مقبولاً في أوساطنا؛ بل ضمّن الشاعر صورةً مائزةً تعكسُ رغبة الرفض وصناعة التحدي كي تتسلح الذات بالمقاومة، وكذا المنازل التي ترفض أن يطأها غير أهلها، وبهذا فلم يعدْ الإنسان وحده من يأبى ذلك بل حتى الجمادات ترفض الغرباء؛ لأن المنازل لا تألف إلاّ أهلها، ولأنها بهم قد نالت مجدها، وتحققت المفاخر بسواعد أبطالها، وامتدت الفضائل في مجالسها:

ارحل
ستهجرك المنازل
يا... كل شيء
فيك راحل
قد غادرتْ
كل الفصول
ولم تعد
تأتي السنابل
فلِمَن
– مواسمك العجاف –
كتبتَ أغنية المناجل
كم أثقلتْ
يدك الجراح
وكم تحاول
أن تحاول(١١)

إنّ ثمة موجبًا مقنعًا يقف وراء هذا الاسترسال الشعري، إذ تجاوبت في أصدائه تصريحات ذاتية وانبثقت منه ملامحُ جديدة، وبهذه المعادلة وبذلك التآلف ستنعكس الصورة من التمرد والرفض إلى المواجهة، فالوطن وساكنوه ينعمون بالاستقرار– إذا كان العدو محجوراً في حدوده ولا مجال لإيصال سمومه لنا – ويرفضون ما يهدّدُ سيادتهم وينتهزُ بهم الفرص، ثم يفصح الشاعر بعد تمحيصٍ دقيقٍ عن ضرورة سيادة الهيبة للبلد، التي خدشها الطارئون، لذلك طالهم التغييب عن قصدٍ لكي يجعلهم ضمن الإطار التغييبي.

ولعلّ ما عمّق جرح الشاعر وعزّز همّه هو تأمله الطويل في وطنه الذي أقيمت على أرضه الصراعات، فكلّما اختلف المتصارعون من شتى أرجاء المعمورة لم يجدوا مستقرًا لصراعاتهم إلاّ على

أرضه ممّا نتج عنها خرابٌ امتدَّ إلى مجده وصروحه الباذخة، لذا اتصف شعره بمقومات فارقة، واكتسب شرعية وجوده فكان ناجزًا في دلالاته وألفاظه وبهذا يصدق عليه حمل (هوية الذات والوطن) بعدما فتح نافذةً تطلُّ على فضاءات متعددة من المعنى تؤكد حضور الرؤية، وهي تخوض في الحاضنة المعرفية والهوية الوطنية والإنسانية، فكانت رؤيته تتصف بملامح تتعدّد فيها زاوية النظر، ولعل اللحظة الأكثر حضورًا إنّما تطلُّ عبر نافذة الوطن، ولذا ترسّخت رؤاه على ضرورة أن يعود العراق كما كان باسلاً قوياً ينعم بالأمان ويضم شتى الطوائف في نسيج اجتماعي يزدهي بألوانه العبقة، فبعودة وطن الأمجاد وهو منتصب القامة طاهر النفس سيموت الأعداء مقهورين وستنداح دوائرهم الواهية في سرابهم الخدّاع:

عد تمنّيتَ
أن يطول بقاءُ
ما تضاءلتَ
لا يسعك فضاءُ
وتمهل
فللرجوع ابتداءُ
وتعجّل
فللذهاب انتهاءُ
تحتك الكل يختبي
من قرونٍ
ثم يغريك
تحتك الاختباءُ
وكسوتَ الجميع
ثوب حياءٍ
أ فتعرى ؟
وأنت فيهم رداءُ
كنت فيهم
كما يشاؤون غيظوا
كيف لو كنت فيهم...
ما تشاءُ[١٢]

وينطوي النص الشعري على الاستدلال الفكري الذي كرّسه الشاعر، وهو يمدُّ ألفاظه الشعرية بالطلاوة ويكسوها بالمعنى الجميل، لذلك نجدها –في محصلتها الفكرية– أنّها إفاضات في صميم المعنى الإنساني، وقد لاحظنا هذا الصنيع قد سجّل ملمحًا شاخصًا ترسّخت القناعة فيه عبر تلاحم اللفظ والمعنى وإنْ كانت "الفصاحة في اللفظ، لا في المعنى، وبما أن المعنى مشترك عام بين الأمم كلها، كما يرى الجاحظ، واللفظ مقصور خاص فإن الشعريّة ليست في المعنى، وإنما هي في اللفظ، ومن هنا تنبع الشعريّة مما هو مقصور خاص"[١٣] لكنَّ اللفظ يشعُّ بما تعدد فيه من المعاني.

وطن
وجوع
وانتظارُ
الموت في وطني
اختيارُ
أجّلتُ
موتيَ للجميع
وما تعطلت العشار
وبقيتُ وحدي
في الطريق
تلمّ آثاري
القفارُ
مذ كنت طفلاً
علّقوا
وطناً على كتفي
وساروا [١٤]

إذ كيفما تكنْ الحياة في وطني فهي تتسع رحابةً، وإن وَسَموه بالجوع وأفزعوه بالموت فلن يزيدوه إلا عزمًا وثباتًا، إذ بالموت –من أجل الوطن– تتفتق قناديل الحياة ويحدو منسابًا ماؤها، والأمل يحدو معها نحو ربيع آخر، وتتعاقب فيه الفصول في مدار يبدأ بالربيع وينتهي به، ذلك الوطن الذي ترسم مسارَه نساءٌ صابراتٌ، وأطفالٌ عازمون على أن يخطو في مسار الآباء عندما يُعاينوا تضحية آبائهم، وهم يسيرون قوافلَ من أجل أن يبقى العراق، أمّا الأجداد فقد غرسوا للأبناء وللأحفاد نخيلاً من الصبر والانتظار والتضحية وكأن قدره أن يُبتلى ساكنه بالصبر، بل عليه أن

يكون صبورًا، فأضحت حياة العراق وتأريخه جنّة الدنيا التي ليس فيها من لغوب، وهي تنشر عبير المجد وشموخ الانتصار وزهو الماضي والحاضر والمستقبل، ولنا في التاريخ شاهدٌ يشدو، وصرحٌ يتألق على الأزمان، وإرادةٌ عراقية تفوق الإرادات، وها هو العراقي يملأ بانجازاته مدن العالم، ليقول تأمّلوا كدَّ الأيادي والعقول وهي تنشر ثقافة العراق، الذي كان ومازال وسيبقى عاصمةً للثقافة العربية، وسيظلُّ لها بفضل رجاله وهم يحملون مشاعل النور، لينيروا مدنه وربوعه، فقد تمرّسوا على الصعاب، ولم يأخذهم في ذلك زعيق المضللين، لإيمانهم أنّ كلَّ ما يُبذل في سبيل الوطن قليلٌ، ولذا لابدّ من تقبّل المزيد ممّا يمرّ عليه كما يدعو إلى ضرورة استيعاب القادم:

ولي عراق بريئات نوافذه
زرعت عيني على جيرانه عتبا
وتدعيني رحى الأيام سنبلة
كأنني لم أكن من قبلها قطبا
فوق اخضرار الأماني خلف ذاكرتي
يفوق ما تحصد الأحلام ما وهبا
فقلت للشعر لما سال ثرثرة
إني وقفت.. فقف في حضرتي أدبا
أنا سأصنع منك الآن معجزة
وأدعيك على أشواكهم عنبا
ولتعترف بالنوايا السود إن يدي
بيضاء لو أومأت للموت لارتعبا(١٥)

ويستمر الشاعر في بناء نصه الشعري، إذ جعل التراكيب تميل إلى الإيحاء وصياغة السياقات الاستعارية الدالة، لذلك فالمدلولات الأولى لدواله الشعرية تكشف أنّ الخطى لن تتعثر بل تظلُّ تسعى عن سبلٍ شتى طالما في النفس إرادة وإصرار، ومهما اشتدّت الأزمات فلن تتقاعس الذات عن الحلول، ولن يرتكن المصير إلى ترحيلٍ جديدٍ كسابق عهده، بل لن تظلّ التأملات تدور في محورٍ أقتم تطوّقها مداراتٌ مغلّفةٌ بالهموم لتفصحَ عن همٍ جديدٍ، بل تحوّلت دعوةُ الشجن بما فيها من هموم تتقلب ظواهرها بين صعودٍ ونزول إلى مواجهة وحضور.

لذلك لم يقف الشاعر عند حدود هذا الهم؛ بل إنّه سلّط الأضواء على موضوعاتٍ اجتماعية مهمة تؤدي إلى موت آخر لا يقلّ شأنها عمّا تمَّ ذكره إذا لم يتم النظر فيها وتقديم الحلول والمعالجات لها لتفادي أخطارها على الواقع الإنساني، وهي في حقيقة الأمر لا تصب نتائجها

السلبية في صالح الوطن، ولا تدعو إلى خيرٍ له ولا إلى تقدمٍ، فعلى سبيل التمثيل ظهور آفة الفقر ونموها واستشراؤها ستقود إلى جهلٍ في المستويات جميعها الإنسانية والفكرية وغيرها، وإلى مرضٍ مزمنٍ يدّبُ في جسد القيم الإنسانية، وتلكما من الآفات الاجتماعية القاتلة فضلاً عن آفات أخرى تنخر في الجسد العراقي فتضعف قوته:

لا تتخم الموت
يكفي ما سيأكله
من الجياع
ويكفي أنهم ثاروا
فمن سيصنع
من هذا الثرى
وطناً
ويدّعي
أنّ كل الناس ثوّارُ(١٦)

مدارات الهوية وقطبية الرمز

إنّ إعمال الطاقة التأويلية وممكناتها الإجرائية والتحويلية يقتضي تدبرها وفهمها، كي يقف المتلقي على مجساتها، وهو يبحث عن ماهيتها، وإن تعددت قراءاتها فإنَّ النصّ يسلك سبيل الإيحاء بالرمز ليصل إلى مضمونٍ دالٍ على ملامحَ جديدةٍ تؤكد انبثاقها كما تؤكد انعطافاتها الفكرية والإنسانية، وهو المسار الذي أشارت إليه نصوص الشاعر كي يصل المطاف بالقارئ إلى رمزٍ يحقّق كلّ الأحلام والطموحات الإنسانية، فهو يُعدّ محطةً شاخصةً في التاريخ الإنساني، وعلامةً من علامات التحوّل في الموازين الإنسانية، إذ يلتصق هذا الرمز التصاقًا حميميًا مع مشاعر الناس فقد أعاد لهم حقوقهم وصان لهم منهاج كرامتهم لذا فهو نبراسهم المستنير، كذلك فإنَّ ليومه اعتزازًا كبيرًا في نفوس المسلمين ألا وهو يوم ولادة الإمام الحسين (عليه السلام)، تلك الولادة التي سجّلت تاريخها في التقويم الإنساني، ومنها ابتدأت الإنسانية تسجّل عزتها وكرامتها بدءاً من اليوم العاشر الذي هُزمت فيه فلول الطغاة، وكان وما زال يقبر عروش الظالمين، فقد كانت جيوش الطغاة وطاقاتهم بما تهيأت لهم من عدةٍ وعدد قد هُزمت وتلاشت بخلود الإمام الحسين (عليه السلام)، وحينها انتصبت راية (لا إله إلاّ الله) وغدت شامخةً يحملها المؤمنون ويهتدون بمضمونها ويتبركون بمعانيها:

كل الوجوه

تلاشتْ

في المصابيح

وسافرتْ

دونما ذكرى

مع الريح[١٧]

وتبقى هذه التوصيفات الشعرية العنصر الدال في مضمار النصّ الشعري كاشفةً عن معطياتها وتحولاتها، إضافةً إلى أنّها استنطاقات مهمة لجمالية النصّ الشعري، كي تكتمل فيه ملامح الرؤى الشعرية والأبعاد الجمالية، لذا فالشاعر يذكر مواطن الخلاص في شعره على أن يذكر بعض العوائق التي حملت لونًا رماديًا ممتدًا في الفضاء الإنساني، وبهذا فالقارئ يطّلع على النصوص ليصل إلى قناعة أنّ ثمةَ زمنًا تتوالى مجريات أحداثه على شعثٍ من غبار الأيام، ومدركات الوهم الحياتي، حينها ستلاقيه بعض مصدات الأوهام وحواجز الاقترافات الخبيئة، التي طالما حجزت الأحلام في طوابير غائمة لا يسأل المرء فيها عن أنسنته، ولا يراد منه أن يقول بهويته أنما هو في شكٍ مبينٍ، فالضياع يعوم به في بيداء الدنيا، وهو مازال يبحثُ عن مكانٍ يجد فيه ذاته وسط ضياع جماعي في حومة الآلام.

وبهذا فإن الشاعر يفتح مديات النظر إلى مساحات جملته الشعرية، ليبدو الأثر الشعري شاخصًا في حضور متجاذب بين الذات والموضوع والأداء، ليدلي بموجهاته كاشفاً تمظهرات الخطاب الشعري، ليبقى المنحى الجمالي متمحوراً حول خواص النوعية الأدائية للشعر محققًا الفارق النوعي للتعبير الشعري، لذلك فإنّ الدلالات الفنية تعكس رؤى هذا العامل الجمالي؛ لأنّ سرَّ ديمومة النص ترتكز على المغزى الجمالي، وهو ما تؤكده مطامح الشاعر في النصّ الشعري، ليذكر أنّ كلّ الأمور ستؤول إلى التلاشي ما دامت لا تمت بصلةٍ إلى السماء ولن يبقى إلاّ مصابيح الهدى، فإنها تتقد كلّما مرّت عليها الليالي والأيام، ومن يرمق ببصره منائرهم الشمّاء وتأريخهم الإنساني، وسمو وجودهم يصلُ إلى قناعةٍ راسخةٍ تحدو به صوب الحق، الذي يُقبر في قبالته الباطل أنّى كان وفي كل زمان ومكان، فمن شاء فليبصر، ومن أراد أن يختار طريق السوء فليسلكه:

هذا أوان الكشف

عن حجم التمدد

في النوايا

من يشتري؟

ذمم الرجال

تباع بخساً في الزوايا[١٨]

لقد أوضح الشاعر عبر تشكيله الشعري أن بناء العبارة تحتاج إلى تأملٍ عميق، لذلك انطلقت نبوءته في استشرافٍ يُغطي مجمل الواقعة المستقبلية للعراق؛ ذلك أنه كيف استطاع أن يتجاوز بصبره مكائد الأوغاد، فهو إرادةٌ وعزيمةٌ لا تنطوي، والساكن فيه يستمد العزم من حضارته ووجوده وتأريخه وقيمه السامية، لذلك كان للصورة الشعرية الوجود الدال، إذ "تكتسب الصورة المرئية قدرة إيحائية وإنتاجية في الوقت نفسه، إيحائية لأنها تقدم تصورات خاصة بمسارات الاشتغال الفكري على قضية معينة، وإنتاجية لأنها تمتلك مهارات فنية تتعلق بخصائص التحرك والانتقال والتقطيع من مشهد لآخر"[١٩]، وتلك الصورة التي نقلها الشاعر كان لا يماري فيها ولا يخادع وليس له أن يزيّف الحقائق:

نثروا جفافك

في دمي

فأتيت مخضرّ القضايا[٢٠]

وتأسيسًا على ما سبق فإنّ الشاعر مسكون بالهواجس المتوارثة في وجدانه، إذ سعى أن يحقق نوعًا من اللقاء بين خطاب الدلالة والرمز ليسهم في رفدهما بالبعد الذاتي، لذلك تجلّت مقصدياته نحو مركزية المكان في الذات الإنسانية، لذا منح البصيرة الحية بعدًا معرفيًا وترك لها المجال أن تنقل المواقف كما هي، على أن لا تغفل الدور المشرّف والريادي للعراق، كذلك أن الشاعر كثيراً ما يدمج بوحه الشخصي وما يمرُّ به ليمنحهما بعدًا إنسانيًا فيردف ذلك في خواطرَ رائعةٍ يتضح للقارئ فيها البعد الوطني والشخصي على حدٍّ سواء، وإنما أظهر خطابه الشعري مدمجًا بـ خطاب مقاومة، فـ "اذا كانت المقاومة في بعض تجلياتها موقفاً من الواقع والحياة والعالم، فهي فعل مضاد ومغاير ومختلف، يفصح عن وعي جديد" [٢١]:

لأجلك هذا الضنى

والظما

فكن مائيَ العذب

أو كن فما

سيأكلك القلب حتى تموت

وتشربك العين

حتى العمى

هما أنت ... فاقتلهما

أن أردتَ

وإن شئتَ تبقيهما كن هما[٢٢]

لذلك تجلّت في مجموعته سلسلة من الحوادث الحقيقية التي من شأنها أن تخاطب الذات وترسل مضامينها إلى الآخر، وله أن يتفاعل معها بوصفها متواليات سيرية؛ ذلك أن بعض الحوادث المؤلمة لا يمكن لها أن تفارق الواقع، لكنَّها تعكس أمرين: (فعل ضرورة) أو (فعل حرية) في آنٍ واحد؛ فعل ضرورة لأن الذات مدفوعة إليه من الواقع، وفعل حرية؛ لأن الذات تطمح من خلاله الى تجاوز الواقع[٢٣] وبهذا التشاكل تستمد الرؤية حضورها منهما، بل تتحيّن الفرص لتوغل عمقًا في ثناياهما، زيادةً على ترسيخ الوعي الشعري، لذلك عقد الشاعر تقاربًا بين واقعيه الحياتي والشعري، لتعبّر ألفاظه عنهما وهي تمرُّ على الواقع الإنساني فتلهبه إكتواءً وتضطرم في موازينه بعض ألسنة النار.

تنكرت الدنيا

وسُوِّدَ ريشها

وجاشت بصدري

عبرة لا أجيشها

تقلبتُ في قلبي

طويلاً فلم أجد

سوى لحظة في مقلتيك أعيشها[٢٤]

وبهذه الصيغ الشعرية تبدو العلاقات المتوائمة من المتناقضة لتنتهي إلى تحولٍ في الذاكرة الفاعلة بين مساري الشعر وفكر الشاعر لتؤول هذه التحولات منذ مفتتحها ووصولًا إلى نهاياتها إلى أنّ ثمة همٍ إنساني غير معلن وأنّ الموقف الشعري لا يتوانى من الإفصاح عنه، لذلك خاطبت هذه الأفكار الوعي الإنساني وتحدثت عمّا يلتف عليه من همٍ وحزنٍ وضياعٍ وتشتتٍ، وهو ما جادت به هذه الرؤى الشعرية معلِنَةً أنّه ربما يكون في مدارِ الأيام أمرٌ آخر، وفي قابلها بصيصُ أملٍ يندا في حماها، وقد يلمع بريقه حتى يبعث في النفوس صبراً يدفع للمقارعة كي لا يقبع موته بديلاً، ومع الأيام وتلك الأوهام بدءٌ جديد، وجدلٌ يحتدم فيه السجال ليدخل الحديث في نفقٍ آخر، قد يرى النور يوما ما وقد لا يراه إلى الأبد، وبعد غفوةٍ من شقوة السير الوئيد على الصخرِ المسجورِ، تستفيق الروحُ في أحلامٍ تطاردها وحشية اليأس في أبشع صور مرسومة بالتشاؤم:

المسافات كلّها والدروبُ

وحدكَ الآن في الفضاء تجوبُ

تبتديه وكل فصل خريفٌ
تنتهيه وكلُّ وقت غروبُ
والأماني كالرماد احتضارٌ
لون الموتُ وجهها والنحيبُ
الهوية والذات والواقع(٢٥)

وتستمر هذه المواجهة الفكرية عبر عمليتي الظهور والاختفاء وهي تمتلك رسوخ الدلالات المتعددة كاشفةً عن نسقها الكتابي وتجدّد الأفكار، لذلك كشفت الأنساق عن لونها المُجسّد لطبيعة الواقع، وبهذا جاء هذا اللون حاملًا تساؤلاته، وهل ثمة لون آخر يدعو إلى الاكتراث من أن يكون رمادياً تتلبد في ثناياه غيومٌ صاخبةٌ يحتاطها العويلُ والنشيجُ، هل لآخر أن يكتب تاريخاً مضمخاً بالهبات المؤلمة التي تنثُّ على الإنسان سقطات موجعة تلتف بوجدانه فتستبيح استقراره ضمن دهور ممزقة بين الضياع والغبن:

أوقد النار تحت عرس الضحايا
كل يوم فتشتهيني القدور
أيها الخبز والعراق انتظار
كل ضوء لوجهه تنور
خلف كل الجهات
كان فحيح واصفرار
وشهقة ونحور(٢٦)

وعلى الرغم من شدة الهموم وقسوة الواقع الذي لا تبدّل في يحموم مصبّه، إلا أن الشاعر قد لجأ إلى من يُخفّف الهم، ويخلق السكينة في النفس المكلومة، فكانت عونًا له في فض أسئلته وسنده في تخطي محنته، ولذا سيبوح قائلا:

لا تسكبي النار
بين الروح
والجسدِ
وأطفئيني
على نهريك
واتقدي
وأمطريني جواباً

فوق أرصفة السؤال
وازدحمي
كالغيم وارتعدي
وقربي من فمي
ما شئتِ
وانتظري
فليس من شيمي
أني أمد يدي(٢٧)

كشف المغزى الشعري عن عمق تمظهرات الأنا الشعرية، كما كشفت القصيدة عن شعرية ذات دلالات متعدّدة، وراحت تحمل أسئلتها وصياغاتها المتجدّدة لتنتهي إلى الدلالات الهادفة، وهذا ما كشفته اللغة الشعرية، لذلك تكرّست الجهود من أجل تمثيل المعنى والتعبير عنه، لتتعزّز الألفاظ الشعرية بقوة المواجهة، وهو ما أدلت به النصوص الشعرية، لتكشف مقدرة الذات على مواجهة كلّ هذه المقارعة التي لم تثبط رهانه على المطاولة؛ بل إنّها تزيده إصراراً على تحمل المشاق، ولذا جاء جوابه إثباتًا لمنفي محذوف، فصوته حاضر لصوت مخفي وليس له أن يكون ماضياً؛ بل سينفخ في الموت حياةً أخرى ليجدّد العهد، وغيره من يكون صوته خاويًا، كما ليس للأعداء أن يحجمّوا الإرادة ويلفوا طوقهم الواهي على أعناقنا:

بلى سأنفخ
صوتي الموت
والصورُ
وينفخون
وصوت البوق
تصفيرُ
جاءوا
ليختصروا الآيات
في لغتي
وكيف يختصر القرآن تفسيرُ (٢٨)

لقد كشفت هذه الثيمة الشعرية عن فعلٍ متحرك يرتكز على بؤرٍ فنيةٍ قادرةٍ على البحث في المغيرات والثوابت، كذلك أنّ هذا الفضاء الفسيح قد تأرجح بين فضاءي الوضوح والغموض، والقارئ

يكشف بوضوحٍ جلي مدارات القصيدة التي ترجمت واقعًا لا يختلف عليه اثنان فكان منها أنّ ليس ثمة جديد على الأعداء فقد حطّموا بالأمس ذكريات الطفولة وعبثوا بآثارنا، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يسرقوا مجدنا الشامخ بالعطاء، فكانت محاولاتهم بائسة لا ترقى إلى حد اقتلاع الجذور، فالعرق ينبض في جذورنا ولن نتنازل عن وطننا وعروبتنا وإسلامنا وقيمنا العريقة:

هل يرحلون
بلا خطاي
وأمكثُ؟
ما زال
يملؤني السؤال
وأنفثُ
كسروا
مرايا الذكريات
ولم أزل طفلاً
بساقية الحقيقة
يعبثُ
للآن يخفي
حبّةً عربية
وعلى مواعيد
الغمام سيَحرثُ(٢٩)

إذ كشف النصّ الشعري عن روابط خفية رغبةً في تضمين وجهات النظر المتعددة وامتصاص أثر الواقع، لذلك تأرجحت الرؤية الشعرية، ففي مواقفٍ أخرى يحاول شبح اليأس أن يمدَّ نفوذه على ذات الشاعر نفسه؛ نظراً لتراكم الأحداث، وهول مآسيها، وهو إنما لجأ إلى الخيال من دون الواقع لينفّه عن نفسه الكرب الذي جثمَ في ذاته، وهو يمتدّ بسطوته عملاقًا، وكثيرًا ما وقف حائلًا بين تحقيق المآرب وبين عدمها:

بين ما أشتهي
وما لا أريدُ
أمل خائف
وضوء عنيدُ

أسكب الكون
فوق رأسي
وأمشي
حاملاً أنجمي
ودربي بليدُ
والمسافات
وهي تقتات مني
وأنا الغيم
كله والرعودُ
كلما اسكتَ المدى
ضحكاتي
أطلق الموت
سحرها والخلودُ
فمتى يهرب الزمان
وأمضي
معه هارباً
ووحدي أعود(٣٠)

ويتنقل الوطن بين أفياء مدينة الشاعر الروحية، فهو بخارطته ونخيله وهضابه وسهوله موجودٌ في أعماقه ومرتسمةٌ ملامحهُ في أحشائه، وبين الانتظار والأماني المؤجلة ينتصب العراق شامخًا في ذات الشاعر بوصفه الأقرب لذاته ووجدانه:

ولي وطن
لم أزل مؤمناً
باخضرار السنابل
كيف تلألأتُ ؟!
كيف أنطفأتُ ؟!
وكيف أنا ؟!
فهل يذكر النخل
أيام كنا صغاراً ؟

وأيام كنا هنا ؟[٣١]

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر يحملُ آلام وطنه الحبيب، الذي هو جزءٌ من الوطن الكبير، ولذا فقد حملَ هاجس العروبة في صرخةٍ ساخطةٍ، وهو يُعاين الأعداء وقد انتهكوا حرمة المقدّسات، وليس للعرب سوى الشجب الخجول والاستنكار المشروخ، فهم الذين لا يوجهون فوهات بنادقهم إلا في صدور ذويهم وأهليهم، وهاهي القدس رهينة سذاجاتهم وأسيرة حماقاتهم وعمالاتهم، أما العراقي الذي يمتلئ شهامةً، فقد آل على نفسه إلا أن يقف بوجوههم على الرغم من دفعه ضريبةً لوفائه الطويل عبر الأزمان، نتيجة لشهامته ولمواقفه النبيلة التي لبّت النداء ولإغاثتها ملهوف امتدادها في الإخوة الإنسانية والعربية، وممّا يُثير العجب ويدعو إلى السخرية إيمان أولئك العرب برفض الانتماء إلى حاضنتهم والى عروبتهم:

على كتفي
حملت القدس
نارا
أطوف بأمتي
داراً فدارا
ولي وطن
يموت بألف سيف
وحولي الروم
والعرب السكارى
فيا عرب المنابر
والمرايا
ويا أفواه
أحلام أسارى
منازلكم تفضُّ
على صراخِ
وما زالت بنادقكم
عذارى[٣٢]

وهذه الصور الحسية المتحركة تؤكد صفتها الداخلية بعدما استمدت حركتها من دلالة الفعل ليسهما معًا في اتساع فضاء النصّ، ليبقى صوت الشاعر يصدحُ في أفق هذا الفضاء، وهو ذلك

الصوت الذي حمل هواجس أبنائه، إذ لا شائبة في ذلك، فإذا ما ذُكِرَ الجزاءُ فإنه مضطهدٌ ومغبونُ، وذلك أقلُّ ما يمكن أن يتخذَ بحقه، أما إذا تلا لسانه بتراتيل الصدق والمحبة والوئام، فإن الصرخات الناشزة ستتعالى عليه، ولكنه لا يأبه لها، فهو أميل لما هو أوثق عند الله، فهم يُريدون استحكام وجوده ليمرّروا مشاريعهم اللإنسانية، وأن يجعلوه يعتاد على صوتٍ لا يمرُّ بسماء الوطن ولا بأرضه، وإلاّ فإنّ صوتهم ينقّب في الزلات وينبش في الماضي شتّى الخلافات حتى يستصدروا قراراً عليه من محكمتهم الجائرة ليكون المتهم بوطنيته:

حبل مشنقتي

طويل

تبنّته بمولدها

الرقابُ

معلّقة دماي

على المعالي

وممتدح سواي بما أعابُ(٣٣)

ومن رحم بيئة الواقع تولد تجارب قابلة للمواجهة والتجاوز وهي ذاتها من تحمل التمرد ليمضي في النص حضور هذه المواجهة، وهي تترشح من ثنايا النصوص لتكشف ثباتها وحضورها، وبعد سير طويل في ليالٍ حالكةٍ، ليس فيها للصبح من متنفسٍ، ولا لنهارٍ آخر معه في تعاقبٍ، إنهما يسيران معاً في غيابٍ للعمر، ويشتركان مع الظلام في حدّة اشتداد السواد والقتامة، وإذ هما يمدّان جسراً لشاعرٍ قد دُركت أيامه، وطال وقوفه على رمضاء الحياة يلتهب أنيناً ويعول مستصرخاً، إذ لا مخرج من تلك الرمضاء سوى نار مسجورة تلتهم الأبرياء وبين الآخرين عذابات وهموم.

يا قلب لا تنزف دمًا وانطق دما

وأذن لهذا الجرح أن يتكلما

يا قلب يا هذا العراق وكلهم

صعدوا عليك وكنت وحدك سلّما

كم علّموك الصبر كيف رضيت أن

ترضى وكنت على الزمان معلّما (٣٤)

ويعود السؤالُ مرةً أخرى ما لتلك الحياة التي لا تحيا سوى بالخوف والقهر ومجانية الموت المكبوت؟هل لها أن تسير دونما ألم؟ وهل للمناجي فيها من حظٍ أم لشجبه المكرور من إصغاء؟ إذن فليس فيها غير دوي صوت بعيد يمدُّ صداه في الأرجاء وينطقُ صامتاً، بهذه الطعوم وتلك

الأوصاف يحقُّ لشاعرٍ أن يُريّحَ خواطره، ويحفل بموضوعيته، ويقدّم عطاياه الممتدة من خزينه الفكري؛ لتكون مضماراً متسماً بالصدق، وهو يدمج ذاته بذوات الموجودين، ويحوّل أضغاثَ حياتهم إلى رؤى جديدة؛ ذلك أنهم منحوه أصواتهم بالوكالةِ وقد بصموا إليه خرائط إبهامهم.

أنا ابن الشمس تعرفني فوحدي

حملت مدارها حربًا سلاما

وما ضاقت مسافاتي عليها

وما جفت خيول دمي إذا ما[٣٥]

ويبقى التقارب قائمًا بين الجانب الدلالي و الجانب الإيحائي، إذ لهما من الفاعلية الجمالية ما يؤهلهما ليكونا على مقربة من ذهن المتلقي، لذلك فالعلاقة بينهما قائمة والشاعر حريصٌ على تضمينهما منسجمين في نصّه الشعري، وبهذا لن يتوانى في عرض أفكاره الساعية إلى إعلاء الحق من خلال إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقه، فهذا العراق الشامخ المذكّر وحده بين إناث الأسماء العربية، لابدّ أن يُذكرَ مجده وحضارته بالسبق والظهور وذلك استحقاقه بما قدّمه من مآثرَ وحضارةٍ عريقةٍ وبطولاتٍ فذّةٍ، وتلك ساحات الوغى تشهد له بالبأس والشكيمة، فأنّى لهم أن يجلسوا محله ليحلوا بديلا:

كانوا نساءً

قطعت الليل أرقب

من يجيء مثلي

ووحدي جئته رجلاً

ومن سيصنف مهري

لو كبا ورمى

صوت الضباب

على أرسانه شللا

أنا الجواب

وهذا المنبر الشرف الباقي

سأصعده

لو أنه احتملا

بلى..

سأصعد

حتى الموت
لو طمعت
يداه بي
ثم أمضي دونه جبلا[٣٦]

ويستعمل الشاعر في الكثير من نصوصه التناصات القرآنية والتي تعبّر بدورها عن حقيقةٍ واقعيةٍ، وهي ذاتها من تستطيع أن تنقل لنا حجم المأساة في الزمن السالف، والتي لها أن تبث صورتها الآن، وما لجوء الشاعر إليها إلاّ ليعللَّ بها حجم المأساة القابعة في الراهن العراقي، وحتى يمثلها في أقرب صورةٍ تحمل دليلا، فكان ذلك في تناصٍ قرآنيٍ يقرّب الحدث، ويحقّقُ نقلةً نوعيةً للقارئ، فينتقل معه–أي القارئ– من هامش القول إلى متن الصورة الحقيقية، كما أنّ في تلك التناصات دعوة لربط الحاضر بالماضي، ليتنور المتلقي بمستقبله وليضطلع بمآثر التاريخ الماضي، ويسير في حياته وهو على بصيرةٍ من أمره من خلال عرض الشواهد والأدلة، وتوفير القدر الكافي له من الاستبصار والهداية حتى لا يقع في المكائد المدبرة له، ولا يكون في غفلةٍ عن الدسائس التي تُحاك ضده:

فجردوني ثيابي
كنت أضعفهم
وأوثقوا
في جذوع النخل
تكبيلي
حتى إذا صلبوني
وارتديت دمي
وودعت دمعتي
جاؤوا لتقبيلي

أنا المسيح
وذي آثار تكبيلي
وها هو الشعر
آياتي وإنجيلي[٣٧]

ولعلّه يختتم تلك الليالي بشيءٍ من قسوة الزمن البليد، ومن القائمين عليه والداعين لاستمراره وهيمنته، فيمرُّ على ذكرياتهم المؤلمة، وينقل للآخر ركام الأيام التي تسيّدوا فيها، فاعتلوا منابرَ للظلم، وفوّضوا القهر ليكون سلطاناً على رقاب الآخرين، وعنواناً لسلطتهم الغاشمة، فسخّروها على وفق أهوائهم وحوّلوا براءتها وصفاءها إلى تعكيرٍ مريرٍ بعدما سيّروا سحائبهم الملأى بغيوم الحقد والتفرقة والشتات:

كان الليل ينام
لذلك لم نحلم تلك الليلة
لكنا كنا نحسب هذا اليوم مع الايام
بعد الليل التاسع والعشرين..
كان هلال العيد يخاف من عين الحراس
لذلك لم يبصره جميع الناس
واختلفوا في عيد الفطر وعيد الأضحى
مازال (التقويم) الهجري
يسجل تاريخ الشهداء وتاريخ الجرحى
ينتظر الزمن القادم من غضب الطرقات
ويمسك أقلام الأموات
ليُشطَب كلُّ التاريخ ويُمحى(٣٨)

سترافق ذات الشاعر قتامة الموقف حتى في حالات الوصف للمشاهد، التي لم يتسنَ له معاينتها بل أن في فكره إنتاجًا للوحاتٍ يرسمها بمخيلته، وقد تقترب صورها من الواقع، وقد يكون بالتشخيص أو من خلال ربط الأحداث بمسبباتها ممّا ينتج تقاربًا في الرؤى، وهذا ما عرضه المبدع في تشخيصٍ قلّ نظيره أو ممّا يشهد له المتلقي بالجدة في تشكيل الصور والدقة في أداء المعاني، وكذلك في ابتكار التآلف بين الأضداد في نسج لوحة جديدة.

ومما يبدو على مشاهد العرض للشاعر وهو يوثّق الأحداث بمصداقية تؤول إليها قناعاتنا بل وقناعة المتلقي الذي له أن يتأمل سيرورة الأحداث، كذلك أن الدافع للقناعة هي جدية العرض وحقيقة الحدث العراقي أبان تلك المدة التي لا تخفى على من عاينها أو تابع آلامها، ولذا فقد صاغ الشاعر رؤيته الجديدة، وهذا ما شهده المضمار الشعري عبر تفصيلات تدعو للانشداد والرغبة في متابعتها بأسلوبٍ محققاً قدراً من التوازن بين البواعث الشعورية / النفسية و جماليات الخطاب الشعري، اللذين يرفعان النقاب عن الجمال الخفي في الأشياء من خلال العدول عن المألوف الذي

يبوح عن المعاني الكامنة في الذات، ولهذا فلكلّ شيء يوم يحتفى به أو يُرزأ به، أما صوت الشاعر قد انطلق ليرفع الأنقاض التي خلّفها الدمار، أمّا قلمه فقد آثر إلا أن يكون في خدمة وطنه، وهذا مدعاة الخلود الفني والإنساني، فلقد كان يسعى للبحث عن هويته التي ارتبط وجودها بالمكان ولم يرتبط زمانيا بمآلات السلطة، ولذا لابدّ من الحفاظ عليها وحث الآخرين على أن يحذو بهذا الحذو حتى تجتمع كلمتهم ويتفرق شمل أعدائهم، فهو يكرّر التصاقه بالمكان وهو ابنه البار، ذلك الوطن الذي لا يمرُّ به زمنٌ ولا يقف حائلا في تمدده، كما يؤكد التصاق الوطن به فالعلاقة بينهما علاقة عاشق ومعشوق والوطن قد استأثر بحب المبدع:

ولست براحلٍ عني
ولست إلى.. سأتركني
مكاني واقف وله
سيأتي راكضاً زمني[٣٩]

وتبقى رؤية الذات الشعرية المتحولة إلى أفق أكثر رحابة هي التي تفسح المجال للذات الشاعرة لتتحرك بفاعلية أكثر يمكن من خلالها أن يلمس القارئ هذا التشكيل المتنامي، كما يمكنه رصد هذه البنية الحركية التي يرفض فيها الشاعر الجمود ويؤكد رغبته في التغيير، وبهذا يتعالق أفق القارئ مع أفق النصّ، ليقف على حقيقة هذا النصّ الشعري الذي يرى أنّه لما كان الأمل يقتات على بقايا قيمٍ توصف بالإنسانية؛ إذ في مواضع الضياع يُستعار الجزع البغيض ليكون أنيساً، وعلى مدارات الأيام حيث الأماكن في ازدحامٍ شديدٍ لرؤى مشاكسة، وحيث النفوس تعتاش على موائد الحرمان وهي منهمكة بالتشرد والضياع، من هذا ينطُّ للواقع مصيرٌ جديدٌ يؤمن بقانون عبثي يقف بالند من حياتنا ويرغب في إعادة صياغة الثوابت الإنسانية نحو نهج آخر، ومما يحسب للشاعر في مضمار مجموعته المذكورة أنه نجح في نقل المتلقي إلى أجواء المحبة والولاء، فقد أهاج وجدًا ووضع في الكثير من اطروحاته النقاط على الحروف، وأوضح متشاكلا وأفرز معالماً حيةً كما استخلص حكمةً استيسرها من خلاصة تجربته بأن حوّل الأفعال إلى أقوال ملموسة، إذ لابدّ للمحن من أن تزول في قابل الأيام فهي كداءٍ يُستشرى في ظل واقعٍ ممروض فإذا ما تمت معالجته ضاع وانتهى.

الحاضرون غياب
والكتاب أنا
فليقرؤني

ما اسطاعوا إليَّ ذرى

وليحملوا بسلال الشك عن لغتي

أميّة الشعر

وليسّاقطوا سفرا

فقد هززت

جذوع النخل

فانتبه الطريق

ينفض عن أضعانه الضجرا(٤٠)

الهوية وأسئلة الذات

لقد تحدّث الشاعر بمزيد من الأسئلة والانتظار، وهذه الأسئلة في صميم العمل الفني وهي من تغطي مجمل الأحداث، فما أن بدأ بحدودها حتى انتهى بنقطة محورها، وإنما كانت الحاجة أكثر إلحاحًا، كما دعا إلى حوار جاد يهيمن على الأزمة ويعزّز ثقافة الاعتدال حتى يكون المفصل الأكثر إشراقًا، وأنّ الدوافع وراء ذلك السعي هو تعزيز نوابض الخير وتجديد الثقة وخلع ما لصق بها من عوائق حتى ينعكس الولاء على الحياة العامة، وهذا المؤدى سيقود–من دون شك– إلى بناء الوطن على وفق حس وطني عالٍ غير مصطنع، وهذا ما أكد عليه المبدع شكلا ومضمونا وعدّه موضع الحاجة، فهو بعد أن بحث عن العامل الإنساني راح يتعقّب آثاره ويعمل على تخليصه من الخطايا العالقة التي أحجبت عنه بصيرته، وفي دائرة الغفران والتوبة سيعود المرتجى إلى حاضنته كريمًا، وينوء مناوؤه بالإفلاس والخذلان، وإذ يلتمع بالأفق معافى ليس إلى تكفيرٍ أخر من سبيلٍ، وكان قد شهد التسامح بعدما استفاق على الجراح فراح يتخطّى المكرور بعد أن فُتِحَ البابُ للجميع وقد أعلنوا توبتهم، وحين عفا عن الطلقاء عاود المنتهزون سيرتهم الأولى ولم يكن من أمرٍ إلا إعلان البراءة من تلك الاثنيات الضالة التي لا يمحوها كثرة الغفران وإنما يُزيدها إصراراً وإلحادا.

وابيضّ صبر المرايا

كي أعود

إلى حنينها

بقميص خبأ البصرا

يعقوب

هل صدقتْ رؤياي

أم دمهم

على قميصي

وهل ما زلت مدّكرا[٤١]

تنشأ فاعلية هذا الطرح في رزمة من التأسيسات الفكرية، وإنما نتجت تلك بعد كل استنتاج، كما بدا للهوية الوطنية تجلياتها التي ترسم مسار السلم الاجتماعي وهي بمثابة إعلان المقاومة المشروعة ضد السياسات القمعية، فجاءت مدونته الشعرية بشواهدٍ زاخرة بالقيم الفكرية والثقافية، وتأمَلُ في تحقيق البعد التأملي، فضلا عن تحقق الممارسة الإمتاعية التي هي وليدة المهارة الشعرية، ولذا فهو يأمل تحقق الجمال في نصوصه كما يأمل تحقق جلال العبارة وهي تحمل أحرف الوطن ليتجلّى شاخصًا في نفس المتلقي، فقد اشتركت الدلالات المتنوعة بالثراء والمتاخمة للرؤى، لتُسهم بشكل أو بآخر في تكريس الأثر الفني، وكانت عناية الشاعر واضحةً في تشكيل المعنى والمبنى الشعريين.

إن سعي الشاعر الى المغايرة الفكرية والتي تُعدُّ سمةً ووسيلةً تعبيرية فعّالة في تشكيل النص الشعري، لذلك لم يرتمِ في دائرة الدعاية الإعلامية ولم يُعزّزها بشواخصٍ لا تقترب من واقعية الحدث ولم يكتفِ بالإشارة إليه، وإنما أودع أفكاره لتعبّر عمّا دار في فضاء الواقع الإنساني والهم اليومي وبما أثير فيه من غبار الهموم وويلات البطش الشديد، وحتى لا تنزلق مضامينه في متاهات الأيام قام بتدوينها على مستوى عالٍ من الإبداع، ولذا فقد احتل منتجه الأدبي مكانةً في الذوات الحيّة، وقدّم إضافةً جادة في مضمار النصوص الشعرية.

أزح عني يديك فقد تأبّت

وجوه تحت غمدك أن تضاما

أنا ابن الشمس تعرفني فوحدي

حملت مدارها حربًا سلاما[٤٢]

لقد كانت محاور العرض قائمةً على التأسيس الفكري الذي يشي بخطٍ مستقيم ابتدأت نقطته بالقتامة ثم آل مساره إلى الانفراج وإن تعثر المسير في طريقٍ لم تطأه أقدام الآدميين، وليس لهم أن يتكهنوا بمصيره الآتي، إلا أنه في نهاية المطاف قد قدّم خلاصةً معرفيةً وإلا ماجدوى السير في طريقٍ شائك محفوف بالمخاطر، ألم يكن من ضروراته استحصال إستراتيجية ناهضة وفاعلة تدعو للتمرّد والثورة تجاه الاستلاب الحاصل في الوطن ليتم انتشال الذات الموؤدة، وحتى لا تبقى غارقةً في غفوتها إذ كم من همّةٍ جمعت أمةً ولملمت شتاتها، وما بين الرؤى المطروحة المتعدّدة والوطن الواحد جدل لا ينتهي، ولهذا فالرؤى المتداخلة سمة الشاعر الذي استعان بتنوع الرؤى الفكرية لتغطي

سيرورة الحدث ومحتوياته، حتى لا يتمكن الضياع من فرض وجوده أو التغلغل إلى بعض الأجزاء التي لابد من تنويرها من أجل فك الاشتباك الحاصل، كان الأمر يدعو إلى وقفة مسؤولة تُعمّق الوعي وترسّخ الثقة، فضلًا عن خلق مناخ ثقافي مثمر قادر على توجيه الطاقات واستثمارها، وأنّ نضج التجربة يأتي من فاعلية الوعي بضرورة تحسين كفاءة الأداة الشعرية وتحديثها ومضاعفة وعي التشكيل بإجراءاته الفنية والجمالية(٤٣).

لذلك يشي النص الشعري بضرورة تعزيز دور الفاعل في النصّ، وبهذا تكون الصورة أقرب إلى الحالة الشعورية؛ ذلك أنَّ "الدلالة الأدبية حين تتخذ الرمز إطارها أو حين تتوقف عند علاقات اللغة والأشياء ببعضها، لاتحافظ على معانيها المسبقة، بل تأخذ معاني مختلفة، فمعناها هو حاضرها، وليس ماضيها"(٤٤)، والمبدع بما دوّنه لم يكن وعّاظاً إنما تحرّى الدقة، وذلك لإحساسه بعسر ولادة الهاجس الوطني، فكان لابد من تأجيج العواطف بل لابد من العمل على طرح مسألة الحوار من أجل أن يسهم في إجهاض المشروع التآمري، والشاعر في كل ذلك قد بلغ أمره وهو الرائد الذي لم يكن ليكذب أهله وهو القائل:

ثُرْ إنّ نزفك لن يروّي غيظهم
ولئن ملأت الأرض من هذي الدما
ثُرْ وانتزع دمع الحسين عيونهم
ملأى به وعيون أهلك بالظما
كسّر قيود الشمس حُلّ وثاقها
وافتح عيونك أم رضيت لها العمى(٤٥)

سيأخذ التكرار مدىً عميقاً وهو يفتح طريقا جديدًا من التأويل الذي يفصح عن جوابٍ؛ كونه ابتدأ بأجوبةٍ (لأنك) عن سؤالٍ سابق له، وكأنما يجيبهم عن ردّة فعل عن فعلهم ذاك، فهو ابن هذا الوطن وقد انتخب نفسه ممثلا له، وسيخبرهم بكشوفات موثوق بها تختزن دليلا:

لأنك لست تعرفني
لأنك جئت تقتلني
لأنك لست ميناءً
سرقت الماء من سفني
لأنك مثل لون الليل
لم تطفئ سوى بدني
لأني لم أعد قمحاً

بطعم الخوف تحصدني
لأني لست من هابيل
هل فكّرت تقتلني ؟؟!
وأولد في جفاف الرمل
مخضرّاً من المحنِ
سأطفئ كل تنّورٍ
تسجّر كي يعذبني(٤٦)

لقد امتدت الشحنة الدلالية لتهيمن على مسار النص الشعري، لتأتي المفارقة ممتدةً بأثرها كاشفةً بعض مآلات الشاعر (لأنك لست ميناءً سرقت الماء من سفني)، ولهذا فإنَّ "المفارقة ناتجة عن إدراك عنصر نصي متوقع بعنصر غير متوقع"(٤٧)، وتقف الخلاصة عند تجربتين أثمرتا اخضرارًا بعدما كان يراد لهما القمع، فثورة الإمام الحسين (عليه السلام) تحولت الدماء فيها إلى حصنٍ منيعٍ لكل الأحرار وعلى مرّ الأزمان، وكلما استرق الظلم بسمعه أتبعه شهاب الحق منطلقًا من ربوع المجد في كربلاء، أما العراق فقد عجز مريدوه من أن يمسحوا فيه أدرانهم، أو أن يكتبوا على حيطانه بطباشيرٍ سوداء حفنة من شعارات الموت التي تخنق الحياة ولا تسمح لفضاءاتها بالاتساع، والشاعر في كل ذلك واقفٌ صامد لا يعبأ بضجيج التفرقة، ولا ينقاد إلى مؤامرة الأعداء، ولا يضيره الاختلاف فهو يراه حالةً صحيةً تُقوّم العمل، إنما يقع الضير في شدّة الخلاف الذي يقود إلى الفرقة والعدوان والذي يقوده العتاة من سدنة الباطل والفجور، لذلك فهاهو ينشدُ بصوته حاملًا صوت عراقه ناطقًا به قائلًا:

أنا ابن الشمس تعرفني فوحدي
حملت مدارها حربًا وسلاما

وما ضاقت مسافاتي عليها
وما جفت خيول دمي إذا ما
وأستل الحسام فإن تغشى
وقفت فتى حماها والحساما(٤٨)

كانت استعانة الشاعر في استشرافٍ الآتي واسترجاع الماضي معتمدًا على التذكير والذكرى، وعلى المحزون أن يتذكرَ ليقدّم عطاءً يُشهد له بالبقاء، ولذا فيمكننا القول أن رمادية الآلوسي قد فتقت ميسم الذاكرة للفكر الإنساني، ووجهت مضامينه فانكشف الغطاء ليزداد يقينًا،

وجرى ذلك بثقةٍ واطمئنان حين مسّه الحيف واتسع الخرق من كثرة الفتن التي من شأنها أن تفجّر النسيج المجتمعي وتخلق تمزقًا فيه، إنه الصوت العالي الذي صدح قائلا وقلبه ممتلئ بالوطنية، حيث ترجم خلاصة أفكاره بعبارة خالدة وذكرها ضمنًا نستشف منها أنّ الوطن بما فيه من مرارات ومحن لا يسعنا إلا العيش فيه.

الخاتمة:

يمكن استصفاء بعض الدلائل التي أفضت إليها الدراسة، فكانت على وفق الآتي:

- إنَّ الحاضنة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي أطرت منتج الشاعر التسعيني، طوّقت شاعره فوسمته بوسم مميز فقد عاش مجموعة (أزمات) سعت إلى الإجهاز عليه (إنسانا) اكتوى بنارها، ومنحته لونها وتجهمها، وصنعت منه متألقًا.
- إن المضامين الشعرية هي بوحٌ صارخٌ للذات، وانتحابٌ شجي ليس بوسعه سد جزء بسيط من خفقات الروح المضطرمة بالألم.
- أفصحَ النصُّ الشعري عن بيان مقدرة الشاعر على استجلاء بعض مواقف المواجهة وجعل النص زاخرًا بـالفعل والخلق، وهو يستقدم عنوانات لليالي المتسلسلة التي مثّلت واقع الوطن، وقد كانت بمفارقةٍ رائعةٍ ليمنحها اسم (نهارات)؛ ذلك أن زمن الوطن مليء بالمتناقضات ويحمل بين طياته الكثير من المفاجئات.
- انعكست الصورة الشعرية على المزيد من التمرد والرفض إلى المواجهة، إذ تُعد في بعض تجلياتها موقفاً من الواقع والحياة والعالم، وهي فعل مضاد يفصح عن وعي جديد.
- على الرغم من شدة الهموم وقسوة الواقع الذي لا تبدّل في يحموم مصبّه، إلا أن الشاعر قد لجأ إلى من يُخفّفُ الهم، ويخلق السكينة في النفس المكلومة، فكانت عوناً له في فض أسئلته وسنده في تخطي محنته.
- انتقل الشاعر بين أفياء الوطن، وكان مدينة الشاعر الروحية، فهو بخارطته وبنخيله وهضابه وسهوله موجودٌ في أعماقه ومرتسمةٌ ملامحهُ في أحشائه، وبين الانتظار والأماني المؤجلة يشمخ العراق في ذات الشاعر ويبدو هو الأقرب إليه.
- إن في فكرة الشاعر إنتاجًا للوحاتٍ يرسمها بمخيلته، وقد تقترب صورها من الواقع، وقد يكون بالتشخيص أو من خلال ربط الأحداث بمسبباتها ممّا ينتج تقاربا في الرؤى
- لقد تحدّث الشاعر بمزيد من الأسئلة والانتظار حتى تستوعب رؤاه مجمل الأحداث وتغطي مساحتها فما أن بدأ بحدودها حتى انتهى بنقطة محورها وإنما كانت الحاجة أكثر إلحاحاً
- لقد بدا للهوية الوطنية تجلياتها التي ترتسم مسار السلم الاجتماعي والتي هي بمثابة إعلان المقاومة المشروعة ضد السياسات القمعية، فجاءت مدونته الشعرية بشواهدَ زاخرةٍ بالقيم الفكرية والثقافية، وتأمل في تحقيق البعد التأملي.

-استعانة الشاعر في استشراف الآتي واسترجاع الماضي معتمدا على التذكير والذكرى، وعلى المخزون أن يتذكرَ ليقدّم عطاءً يُشهد له بالبقاء، ولذا فيمكننا القول أن رمادية الالوسي قد فتقت ميسم الذاكرة للفكر الإنساني ووجهت مضامينه فانكشف الغطاء ليزداد يقينا.

المصادر والمراجع:

- البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت، تر: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩٩م.
- تأويل النصّ الشعري، د. محمد صابر عبيد، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.
- الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، الياس خوري، مؤسسات الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، ط١،١٩٨٢م.
- الرمز في الشعر العربي، د. ناصر لوحيشي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١١م.
- الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.
- قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ندوة الصورة والخطاب، إشراف وتحرير: د. محمد القاسمي، د. حسن السعيدي، عالم الكتب الحديث، أربد- الأردن، ٢٠٠٩م.
- اللغة في الأدب الجديد، الحداثة والتجريب، جاكوب كورك، ت- اليوت، يوسف وعزيز عمانوئيل، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ١٩٨٩م.
-لون آخر للرماد، مضر الآلوسي، شعر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١١م.
- مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع، توفيق الزبيدي، سراس للنشر، تونس، (د.ت).
- النقد والخطاب، محاولة قراءةٍ في مراجعةٍ نقديّة عربيّةٍ معاصرة، مصطفى خضر، (نسخة الكترونية)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

الهوامش:

[١] -لون آخر للرماد، مضر الآلوسي، شعر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١١م: ٤.
[٢] -لون آخر للرماد: ٥.
[٣]- اللغة في الأدب الجديد، الحداثة والتجريب، جاكوب كورك، ت- اليوت، يوسف وعزيز عمانوئيل، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ١٩٨٩م: ٣٧.
[٤] -لون آخر للرماد: ٦.
[٥] -لون آخر للرماد: ٧.
[٦]- في حداثة النص الشعري: ٥٦.
[٧]- الرمز في الشعر العربي، د. ناصر لوحيشي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١١م: ١٥٢.
[٨] -لون آخر للرماد: ١٠٩-١١٠.
[٩]- مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع، توفيق الزبيدي، سراس للنشر، تونس، (د.ت): ١١٧.
[١٠] -لون آخر للرماد: ٨.
[١١] -لون آخر للرماد: ٩.
[١٢] -لون آخر للرماد: ١٠-١١.
[١٣]- الشعرية العربية، أدونيس، دار الآداب، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م: ٣٤.
[١٤] -لون آخر للرماد: ١٢.
[١٥] - لون آخر للرماد: ٨٠- ٨١- ٨٣- ٨٤.
[١٦] - لون آخر للرماد: ١٤.
[١٧] - لون آخر للرماد: ١٥.
[١٨] - لون آخر للرماد: ١٦.
[١٩]- قضايا النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ندوة الصورة والخطاب، إشراف وتحرير: د. محمد القاسمي، د. حسن السعيدي، عالم الكتب الحديث، أربد- الأردن، ٢٠٠٩م: ٣٢.
[٢٠] - لون آخر للرماد: ١٧.
[٢١]- النقد والخطاب، محاولة قراءةٍ في مراجعةٍ نقديّة عربيّةٍ معاصرة، مصطفى خضر، (نسخة الكترونية)، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م: ١١٩.
[٢٢] - لون آخر للرماد: ١٨.
[٢٣]- ينظر: الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ٣٨.
[٢٤] - لون آخر للرماد: ١٩.
[٢٥] - لون آخر للرماد: ٩٩-١٠٠.
[٢٦] - لون آخر للرماد: ٨٥-٨٦.
[٢٧] - لون آخر للرماد: ٢٠.
[٢٨] - لون آخر للرماد: ٢١.
[٢٩] - لون آخر للرماد:٢٢-٢٣.
[٣٠] - لون آخر للرماد: ٢٤-٢٥.
[٣١] - لون آخر للرماد: ٣٠.
[٣٢] - لون آخر للرماد: ٣٤-٣٥-٣٦.
[٣٣] - لون آخر للرماد: ٤٤.
[٣٤] - لون آخر للرماد: ١٠٩.
[٣٥] - لون آخر للرماد: ١٠٨.
[٣٦] -لون آخر للرماد: ٤٦-٤٧-٤٨.

[٣٧] -لون آخر للرماد: ٥٠-٥١.
[٣٨] -لون آخر للرماد: ٥٨.
[٣٩] -لون آخر للرماد: ٩٨.
[٤٠] -لون آخر للرماد: ٧٦-٧٧.
[٤١] -لون آخر للرماد: ٧٠.
[٤٢] -لون آخر للرماد: ١٠٥.
[٤٣]- ينظر: تأويل النصّ الشعري، د. محمد صابر عبيد، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م: ٢٩.
[٤٤]- الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، الياس خوري، مؤسسات الأبحاث العربية، بيروت-لبنان، ط١٩٨٢،١م: ٢٢٨.
[٤٥] -لون آخر للرماد: ١١١.
[٤٦] -لون آخر للرماد: ٩٥-٩٦.
[٤٧]- البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليت، تر: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ١٩٩٩م: ٦٠.
[٤٨] -لون آخر للرماد: ١٠٧.